بين السارد والراوي

رغم إقرارنا المبدئي بأفضلية المصطلح « سارد » على المصطلح « راو »* للدلالة على العون السردي (Narrateur)، فإنه من الضروري أن نعود إلى تتبع نشأة المصطلحين في الثقافة العربية لنقف على نشأة كليهما وتطورهما، ونوازي بينهما وبين مفهوم (Narrateur) في اللسان الفرنسي، ليقر رأينا على مصطلح نلتزم به في بحثنا.

الراوي في الثقافة العربية هو ناقل الحديث النبوي شفويا، وهذا الناقل له صفات مخصوصة هي الصدق والعدل والثقة « فلا يقبل الحديث النبوي إلا من ثقة« [1]، ومن صفاته أيضا أن يكون زمن السماع « عالما بما يسمعه واعيا ضابطا له، حتى يصح منه معرفته بعينه عند الذكر له كما عرفه وقت التحمل فيؤديه كما سمعه »[2]. ولعـــــل هـــذا التدقيق في صفات الراوي يعود إلى اهتمام العلماء بالحديث النبوي وناقلـــه الـــــذي « ذكروا فيه أدق التفاصيل وكأنهم كانوا يخشون أن يتركوا فرجة تتسرب منها الموضوعات ويجد منها المضعفون منفذا « [3].

فالراوي للأحاديث النبوية ناقل صادق أمين بعيد عن التزوير والكذب والوضع، ولا يقبل الاختصار ولا الإضافة، وهو ناقل شفويا لما سمعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن أحد الثقاة، ولكن كيف كانت صورة الراوي الأدبي في الثقافة العربية الإسلامية؟

ناقل الخبر الأدبي يسمى كذلك « راويا » رغم اختلافه عن راوي الحديث النبوي. فإذا كان ناقل الحديث النبوي يسعى إلى الوصول إلى أصل الخبر فيتثبت منه ويتفحصه فإن هم ناقل الخبر الأدبي لم يكن ذاك فـ « الراوي المحترف »* « يجمع الروايات المختلفة ثم يحدث بها الرواة الآخرين« [4]فهو ذلك الشخص الذي اجتمعت عنده روايات المخبرين « فأعاد تشكيلها وقدمها، بوصفها « منتوجا محولا » قابلا للاستهلاك وفق ما تقتضيه سنة الأدب وأفق انتظار السامعين والطلبة والقراء ... »[5]

وبذلك يكون الراوي المحترف بمثابة المؤلف بين الروايات بعد أن تعهدها بالتنقيح والزيادة والانتقاء، فلم يعد الناقل الموضوعي والأمين بل صار مبدعا ينقل شفويا شتات الروايات والأخبار والنوادر التي جمّعها .

أما الراوي في القصص الشعبي فهو ذلك الشخص الحكيم الرصين الذي خبر الحياة وشهد صنوفا من التجارب، وهو ذلك الرجل الصادق الذي يسعى إلى كسب قوت يومه ببليغ لسانه وحلو أخباره « فالراوي شخص محبوب يعمر الأسواق والأحياء والموانئ... وخاصة المجالس العائلية ليلا« [6] وبذلك يكون الراوي للقصص الشعبي شخصا تاريخيا يلتقط مادته الحكائية من أفواه العباد ليعيد صياغتها وفق نسق سردي مثير. بما أن هدفه الأول استمالة الجمهور إلى مادته القصصية.

وبالجملة فإن الراوي الأدبي والراوي للقصص الشعبي يشتركان في أنهما يمثلان آخر الرواة، بما أنهما يجمعان القصص فيعيدان صياغتها ونقلها دون تحريف، وقد يتصرفان فيها فيتعهدانها بالزيادة أو الحذف أو التنظيم، فلم يعد « الراوي » ذلك الناقل الأمين الحريص على صحة أخباره ودقتها مثل راوي الحديث النبوي بل صار مبدعا » يختفي وراء حجاب النقل« [7] ولكن هل يستجيب هذا الناقل – المبدع – الذي عرف اصطلاحا في الأدب العربي بالراوي- دلاليا لمقولة (Narrateur) في الأدب الحديث ؟

إذا تتبعنا مصطلح » الراوي » في الثقافة العربية وجدناه لا يستجيب دلاليا للعون السردي (Narrateur) بمفهومه في السردية الحديثة، فالراوي شخص تاريخي واقع في زمان ومكان معينين وجامع أخبار وناقل لها شفويا يختلف عن (Narrateur) الكائن الخيالي السارد أحداثا لا نتلقاها مشافهة بل عبر فعل القراءة ، والمبتدع للأخبار والقصص والحكايات لا الجامع لها.

نخلص إلى أن مصطلح « راو » يختلف دلاليا ومعجميا عن مصطلح « سارد » فالراوي اسم فاعل دال على القائم بفعل الرواية والسارد اسم فاعل دال على القائم بفعل السرد. ولما كان الجذر (س ر د) يحمل من المعاني ما يحيل إلى الفعل السردي (Narrateur)، ولما كان الراوي في الثقافة العربية هو الناقل للأخبار لا المبدع المتخيل للقصص، نميل إلى أن مصطلح سارد هو المرادف لمصطلح (Narrateur) وهذا يدفعنا إلى البحث عن تعريف لهذا المفهوم السردي في الكتابات النقدية.

يعود اهتمام الدراسات السردية المندرجة ضمن علم السرد (Narratologie) بالسارد لاعتباره مكوّنا أساسيا من مكونات الخطاب الروائي وبوصفه يضطلع بأكثر من دور داخل العالم المروي، فالسارد »يجسد المبادئ التي ينطلق منها إطلاق الأحكام التمويهية وهو الذي يخفي الشخصيات أو يجلوها (...) وهو الذي يختار الخطاب المباشر أو الخطاب المحكي، ويختار التتالي الزمني أو الانقلابات الزمنية « [8].

ويميز علماء السرديات بين المؤلف بما هو منشئ الأثر الأدبي وحامل رسالة أدبية إلى قارئ تاريخي أو ملموس، وبين السارد بما هو كائن متخيل يتوسط بين المؤلف والحكاية الروائية ويتولى مهمة إيصال العالم المروي إلى مسرود له (un narrateur) هو من جنسه أي متخيل[9].

والسارد باعتباره عنصرا سرديا[10]أو كونه صوتا ودورا متخيلا وضميرا[11] يبقى كائنا خياليا يخلقه المؤلف ضمن ما يخلقه من عناصر سردية، ليكشف به عالم الرواية أي أن السارد هو ذلك الشخص الذي يحكي لنا الحكاية، وهو بذلك يحدد لنا استقلالية العمل عن منتجه، فعبر السارد يصنع المؤلف المسافة التي تعادل قدرته على إبداع شخصيات حية قادرة على النطق بصوتها لا بصوته. ولا ننفي تقاطع التخوم بين الذات الساردة والذات الكاتبة، ليصير المؤلف هو الصوت الذي

يروي داخل العالم الروائي، ولينخرط هذا الصنف من الروايات في جنس السيرة الذاتية .

صفوة القول إن السارد كائن ورقي ابتدعه المؤلف وخلقه ليضطلع بمهمة رئيسية في العالم المحكي وهي سرد الأحداث، فهو « يقوم لحظة الإبداع بوظيفة نسج الخطاب الذي يصور عالم الحكايات المتخيّلة« [12] ولا يهمنا إن كان السارد كاذبا أو صادقا بما أنه لا ينقل عن أحد وبما أنه يتنزل ضمن عالم خيالي بل هو ذاته كائن خيالي، إذ هو « مكون من جملة العلامات التي تبني صورة المصطلح بالسرد في النص« [13]

***- توصل علي عبيد إلى نفي إمكانية الترادف بين المصطلحين لذلك وجب الانتصار إلى مصطلح والإعراض عن الآخر. انظر: علي عبيد: المقامات السردية، ص 78 – 79.**

[1]- محمد القاضي : الخبر في الأدب العربي؛ دراسة في السردية العربية، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، كلية الآداب منوبة، تونس، ط1، 1998، ص 210 .

[2]- الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الهند، 1938،ص ص 52 -53. عن: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص 240.

[3]- محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، ص 242 .

***- يطلق محمد القاضي هذه التسمية على ناقل الخبر الأدبي**

[4]- محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، ص 317.

[5]- المصدر نفسه، ص 218.

[6]- عبد الوهاب رقيق : في السرد دراسة تطبيقية. ص 100.

[7]- تزيفيتان تودوروف: الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدارالبيضاء، ط1، 1987، ص 56.

[8]- محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، ص 211.

[9]- Lintvelt .J : *Essai de typologie Narrative ; Le point de vue*, Ed : Librairie José Corti.Paris ,1989, p p 16 -28.

[10]– Bal Mieke : *Narratologie, essai sur la signification modernes narrative dans quatre romans*, Ed : Klinchsieck, Paris, 1977, p 31.

[11]– Genette .J : *figure III* , Ed : Seuil, Paris 1972, p. 223.

[12]- علي عبيد : المقامات السردية في الكتابة القصصية، ص 83 .

[13]- الصادق قسومة : طرائق تحليل القصة، ص 136.